العالم في لحظته الراهنة

- ما جدوى الاهتمام بالعالم والكتابة عنه وهو لا يظهر سوى أسوأ ما فيه ؟! بل ما الجدوى من كل شيء حين تنكسر صورة الأشياء الجميلة في داخلك، ولا تجد سببا وجيها يفسر لك سر هذا الانكسار، العالم يمضي إلى حتفه، وقضاياه السياسية والدينية والاجتماعية لا تعالج من منظور الحب والتواصل الإنساني، بل من منظور الحرب والعنف.

- تقلصت أحلام الناس، ولم تعد ذاكرتهم تتسع لمزيدٍ من التقلص. هل هذا هو المعنى الذي تصار إليه الحياة حين يكون العالم بهذه الصورة؟ لا بد أن تكون ثمة وشائج بين معنى الحياة من جانب وصورة العالم من جانب آخر، حتى نعتقد جازمين بهذه الصيرورة. الوشائج هنا لا تعني شيئا آخر غير الروابط المتينة التي تصنع ما نسميه الإنسان في هذا العالم: روابط تاريخية، روابط دينية، روابط اجتماعية وسياسية.

مجموع هذه الروابط هي نسيج الهويات التي تتغذى على عقل الإنسان وروحه.

العالم بمعزل عن صورة حياتنا عنه هو عماء مطلق، لذلك كيف نفهمه بالعمق الذي تواجهنا فيه قضاياه بعنف لا يمكن استيعابه؟

الذين حاولوا الفهم سقطت فوق رؤوسهم حجارة الأوهام. كل حدث عالمي يقع كالصاعقة على حياة الناس تتلوه محاولة للفهم.

لكن ما يجري مع الخطابات الفكرية والفلاسفة والمفكرين هو عكس ذلك. يُنسى الحدث ويتضاءل حجمه في الذاكرة، وإذا ما صمد فإنه يتحول إلى أيقونة يمكن توظيفها جماليا وسياسيا أيضا، بينما تجربة الفهم تعود خاوية الوفاض بلا أثر يذكر كما لو أنها مقاربة لم تحدث أصلا.

ثم ماذا؟

تعود هذه المحاولة من جديد مع كل حدث آخر، رغم الدروس التي يخرج بها هذا المفكر أو ذاك الفيلسوف من تلك المحاولة.

لا مفر - إذن - من المتاهة، ولا سبيل للخروج منها.

العلم يقنعك بالتطور، ويجبرك العيش على إيقاعه، والفلسفة بعد صولات وجولات الماركسية انزوت داخل اللغة، وأخذت تتحسر على ماضيها. والدين انفصل تماما عن الثقافة، وأخذ يقدم نفسه للعالم من منظور تأثير العولمة، والحلول التي يقدمها هي في حد ذاتها تشكل أزمة تكبر مع كل صراع ديني أو طائفي.

لم يتبق سوى الأدب الذي هو أيضا لم ينجُ من تبعات هذا الوضع الذي يسود العالم حاليا. كان الأدب فعل مقاومة ضد التصحر في العلاقات الإنسانية، وفي العلاقات بين الشعوب، لم تمر فترة من التاريخ لم يكن

للمخيلة الأدبية دور فعال في صناعة القيم الإنسانية للمجتمع.

الآن الأدب مجرد سلعة ضمن ثقافة رأسمالية معولمة، ولا صفات تمتاز بها هذه السلعة سوى أنها خاضعة لقيم السوق.

لم يعد له قيمة في الفعل الإنساني، أي أن الأدباء بالمجمل لم يصبحوا محور التأثير في العالم كما كانوا إلى وقت قريب.

مرة قال الأديب والشاعر المكسيكي أكتوفيو باث، بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للآداب ما معناه: إن فكرة وجود أسلحة الدمار الشامل فكرة مرعبة تعطي تبريرا مشروعا للأدب في البحث عن النهايات. هذا البحث لم ينسحب فقط على الأدب، بل وجدنا صداه في قلب التفكير الفلسفي الغربي.

هذه النهايات التي لا تعني سوى قرب موت الإنسان، وانحسار حياته على هذه الأرض، وجميع الفلسفات الحديثة تتكئ على هذا المنظور من قريب أو من بعيد.

العالم في لحظته الراهنة لا يصنع نجومه ورموزه من الأدباء والمفكرين والفلاسفة كما كان الحال عليه في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، بل يصنعها من خلال كل ثقافة قابلة للإشهار والتداول كسلعة.

لا تجود قيمة ثابتة تخضع لها رموز هذه الثقافة، معيار قيمتها الوحيد هو «الموضة».

وهذه بدورها خاضعة للتبدلات والتحولات والتغيرات، حسب سرعة تطور العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين المجتمع الدولي.